تلمسان من خلال كتاب "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم".

أ.د. عبد الكريم كريم*

تحتفل الأمة الإسلامية بمدينة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية سنتنا هذه، وبهذه المناسبة تصدر مجلة "التاريخ العربي" دراسة تبرز دور المدينة في نشر الدعوة العربية الإسلامية منذ أن حلّ بها القادة الفاتحون الأوائل ومن جاء بعدهم من عرب المشرق الذين تمكن بعضهم من تأسيس إمارات مستقلة مثل عبد الرحمن الداخل في الأندلس وعبد الرحمن بن رستم في تاهرت والمولى إدريس في زرهون...

يعد أبو قرة زعيم بني يفرن أقوى قبائل زناتة من القادة الأوائل لتلمسان، وعندما قامت الدولة الإدريسية في زرهون عام 172هـ أعلن أبو قرة بيعة المولى إدريس الذي زار تلمسان وبنى بها المسجد الذي لا تزال مئذنته قائمة حتى اليوم[1].

أوقف المرابطون زحف قبائل بني هلال وبني سليم في شرقي الجزائر "وبنى هذا الفاتح العظيم- يوسف بن تشفين- في مدينة تلمسان مساجد عظيمة شارك هو نفسه في تشييدها فهناك الجامع الكبير بالجزائر العاصمة والجامع الكبير بندرومة وهناك الجامع الكبير بتلمسان"[5].

أصبحت مدينة تلمسان في عهد الدولة الموحدية من العواصم الرئيسية، فقد "أسند حكمها لعضو من أعضاء أسرة عبد المؤمن، وشيدوا بها الصروح والمباني العظيمة والقصور التي لم يدخروا وسعا في تزيينها وتجميلها"[3]، وحسب الجغرافي الإدريسي الذي عاش في النصف الثاني للقرن الثاني عشر كانت "تلمسان مدينة مزدهرة، بها وفرة البضائع التي تباع وتشترى بثمن رخيص، وتتوفر على المياه الغزيرة والحدائق الزاهية البديعة.."[4].

عرفت بلاد الشمال الإفريقي بعد ضعف الدولة الموحدية قيام الدولة الحفصية في تونس والدولة المرينية في المغرب و دولة بني عبد الواد في تلمسان "وبنو عبد الواد بدو من قبيلة زناتة

* - أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب- جامعة الرباط ورئيس جمعية المؤرخين المغاربة ومدير مجلة التاريخ العربي.

استعملهم الموحدون لحماية تلمسان"[5]، ويعد القائد يغمراسن مؤسس الدولة الذي دام حكمه أربعين سنة.

استرد بنو عبد الواد حكم تلمسان عام 1348م بقيادة أبي حمو الثاني، وظلت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط حتى سيطرة الأتراك العثمانيين منتصف القرن السادس عشر....

عرفت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط زمن بني عبد الواد "ألمع وأخصب فترة من تاريخها، فقد جعل منها مركز نفوذ ثقافي واسع أصبحت بحق العاصمة الدينية والثقافية لتعدد مدارسها مثل مدرسة العبّاد ومدرسة أبي مدين"[6] التي التجأ إليها عبد الرحمن ابن خلدون الذي يذكر ذلك قائلا: "لقد توجهت إلى مدرسة الشيخ أبي مدين فرارا من الشؤون المدنية، وطلبا للدرس بقدر ما يسمح لي بذلك"[7].

ومن جهة أخرى تعددت هجرات الأندلسيين إلى تلمسان في الأزمنة المختلفة، وازدهرت بصفة خاصة فنون الآلة الأندلسية كما شرح ذلك المقري في "نفح الطيب"[8].

من المصادر المخطوطة التي تحدث عن تلمسان عاصمة بني عبد الواد "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" لمؤلفه عبد الباسط الظاهري التركي الذي: "ولد في مدينة ملطية التركية، وعاش في الشام ومصر ومن الإسكندرية زار أقطار الشمال الإفريقي والأندلس ما بين سنتي 866-874هـ/1462-1477م)، وقد تزامنت رحلته مع الانتصارات التي حققها السلطان محمد الثاني "الفاتح" (1451-1481م) الذي فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، واتخذها عاصمة للإمبراطورية التركية العثمانية باسم استامبول..."[9]

وفيما يلي مقتطفات مما أورده عبد الباسط الظاهري في كتابه عن الجزائر:

" ثم رحلنا من الجزائر فاجتزنا بطريقنا إلى تلمسان[10]".

صـــلاة عيد الأضحى بتلمسان (الأحد 10 ذي الحجة 866ه/1462م)

وفي يوم الأحد عاشره كان عيد النحر بتلمسان، فخرجنا للمصلى بظاهرها، وحضر محمد بن أبي ثابت صاحب تلمسان صلاة العيد في هذا اليوم.

ربض العباد بتلمسان في 5 محرم 867هـ/1462م)

وفيه، في يوم الجمعة خامسه خرجت من تلمسان قاصدا ربض تلمسان الذي يقال له العباد، ونسبته لتلمسان كنسبة ضاحية دمشق لها، وبه مقام لشيخ متبرك أبو مدين الإشبيلي

الخطب، الولي، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته فزرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلامة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان وعالمها، وخطيب جامع العباد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحرا في الفنون العلمية آية في ذلك، فأنس في، ثم سمعت خطبته التي شنف بها الأسماع وموعظته التي بها الانتفاع، وترددت إليه بعد ذلك، وحضرت كثيرا من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجم من فوائده في مدة ستة شهور، وكان أجل علماء تلمسان في عهده ذلك، و له من السن نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تمتعه بحواسه وسلامة بدنه.

الاجتماع بعلماء تلمسان: ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم الفاضل، سيدي أبي عبد الله محمد العقباني، وأخيه سيدي أبي سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد ابن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكرياء مفتي تلمسان، و السيد الشريف يحي ابن أبي الفرج قريب السيد الشريف التلمساني قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني، ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربي الأقدري، موسى بن سحويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، المتطبب المعروف بأبيه، هداه الله تعالى للإسلام، لم أسمع بذمي، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم، وفي علم الوقت والميقات وبعض العلوم القديمة، مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه و يعتقده، وهو في الأصل من يهود الأندلس، وولد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخذ عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يمته على ملة النبي صلى الله عليه و سلم".

"شهر شعبان" تحصين تلمسان (870هـ/1467م).

الخطب، الولي، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته فزرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلامة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان وعالمها، وخطيب جامع العباد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحرا في الفنون العلمية آية في ذلك، فأنس في، ثم سمعت خطبته التي شنف بها الأسماع وموعظته التي بها الانتفاع، وترددت إليه بعد ذلك، وحضرت كثيرا من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجم من فوائده في مدة ستة شهور، وكان أجل علماء تلمسان في عهده ذلك، و له من السن نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تمتعه بحواسه وسلامة بدنه.

الاجتماع بعلماء تلمسان: ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم الفاضل، سيدي أبي عبد الله محمد العقباني، وأخيه سيدي أبي سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد ابن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكرياء مفتي تلمسان، و السيد الشريف يحي ابن أبي الفرج قريب السيد الشريف التلمساني قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني، ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربي الأقدري، موسى بن سحويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، المتطبب المعروف بأبيه، هداه الله تعالى للإسلام، لم أسمع بذمي، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم، وفي علم الوقت والميقات وبعض العلوم القديمة، مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه و يعتقده، وهو في الأصل من يهود الأندلس، وولد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخذ عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يمته على ملة النبي صلى الله عليه و سلم".

"شهر شعبان" تحصين تلمسان (870هـ/1467م).

الخطب، الولي، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته فزرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلامة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان وعالمها، وخطيب جامع العباد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحرا في الفنون العلمية آية في ذلك، فأنس في، ثم سمعت خطبته التي شنف بها الأسماع وموعظته التي بها الانتفاع، وترددت إليه بعد ذلك، وحضرت كثيرا من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجم من فوائده في مدة ستة شهور، وكان أجل علماء تلمسان في عهده ذلك، و له من السن نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تمتعه بحواسه وسلامة بدنه.

الاجتماع بعلماء تلمسان: ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم الفاضل، سيدي أبي عبد الله محمد العقباني، وأخيه سيدي أبي سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد ابن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكرياء مفتي تلمسان، و السيد الشريف يحي ابن أبي الفرج قريب السيد الشريف التلمساني قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني، ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربي الأقدري، موسى بن سحويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، المتطبب المعروف بأبيه، هداه الله تعالى للإسلام، لم أسمع بذمي، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم، وفي علم الوقت والميقات وبعض العلوم القديمة، مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه و يعتقده، وهو في الأصل من يهود الأندلس، وولد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخذ عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يمته على ملة النبي صلى الله عليه و سلم".

"شهر شعبان" تحصين تلمسان (870هـ/1467م).

وفيه، في أوائل شعبان، ابتدأ صاحب تلمسان في بناء برج عظيم على باب تلمسان، وأخذ في قطع ما إلى جانب الباب من خارجه من الأشجار، واجتهد في تحصينها، وتفقد أسوارها، وجدّ في العمل في إنشاء هذا البرج، حتى أنهاه في أواخر هذا الشهر.

وفيه، أعني هذا الشهر، بعد نهاية البرج، خرج صاحب تلمسان إلى مكان يقال له جبل بني مشعل وبه حصن منيع، فتفقده، وأشيع بأنه قصد أن يبعث بحريمه وذخائره إليه إذ بلغه مجيء صاحب تونس إليه.

إخراج المستعين بالله بن الأحمر من غرناطة (867هـ/1462م).

وفيه، في هذه الأيام أيضا، ورد الخبر إلى تلمسان بأن صاحب غرناطة وملك الأندلس أمير المسلمين المستعين بالله سعد بن أبي عبد الله محمد ابن أبي الحاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر المعروف بابن الأحمر، قد وقعت الوحشة بينه وبين ولده أبا الحسن عليا، وثار أبو الحسن المذكور على أبيه فأخرجه من غرناطة وملكها، وأن المستعين بالله توجه لمالقة، وسبب ذلك الوزراء من أمثال أبي السراج وغيرهم الذين حسنوا هذا لأبي الحسن.

شهر صفر: وفيها- أوائل صفر- ورد الخبر إلى تلمسان بأن المستعين بالله صاحب غرناطة بعث إليه ولده الذي ملك بعده من حمله إلى بعض حصون الأندلس مضيقا عليه به.

استيلاء البرتغال على جبل الفتح(867هـ):

وفيه- أعني هذا الشهر- أخذ الفرنج البرتغال البلد المعظم أحد أعز حصون الإسلام وبلدانها بالأندلس المسمى بجبل الفتح، وذلك في هذه الفتنة الكائنة بين الأب والابن، أعني أبا النصر سعد بن الأحمر، وولده أبا الحق، الماضي خبرهما؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون؛ فإن ذلك من أصعب المصائب في الإسلام، لأن من هذا الحصن كانت بداية أخذ بلاد الأندلس من الكفار في الزمن الأول، وهو أعظم معاقل الإسلام بالأندلس، وخرج أهلها منها بالأمان، وبالله المستعان، ولما بلغ هذا الخبر تلمسان وغيرها من بلاد الإسلام بهذه الجهة، عظم ذلك عليهم، وكثر التأسف على ضعف الإسلام بالأندلس، واشتغالهم عن حفظ الحصون الإسلامية بما هم فيه من الفتن وطلب العزّ والسلطان المفضي إلى الذل و الهوان.

وبلغنا أن الكفار احتالوا بعض حيلة على أهل جبل الفتح، ثم أمنوهم؛ فخرجوا ولم يتعرّضوا لهم البتة، بل أعانوهم على نقل الكثير من أمتعتهم، وإيصالهم إلى حيث مأمنهم.

عزم ألفونس ملك قشتالة الزحف على الأندلس (867هـ)

وفيه ورد الخبر إلى تلمسان من الأندلس بأن ألفنس صاحب قشتالة وإشبيلية وقرطبة وباقي ما في ذلك من بلاد الفرنج وممالكها قد عزم على الزحف على الأندلس لغزوها وأخذها للخلاف الكائن بين الأب والابن، أعني ملك الأندلس سعدا وولده أبا الحسن وما وقع لهما، وأرجف بذلك في تلك البلاد، ولما بلغ أبو الحسن ذلك، بعث باستقدام أبيه من الحصن الذي كان به.

ولما خرج الأب توجه إلى مدينة ألمرية فأقام بها، ولم يعارضه ولده في ذلك، بل بعث إليه فطلب رضاه والاعتذار إليه، وأنه الملك وهو في معنى وزيره ونحو ذلك من الكلمات، وكان بألمرية القائد محمد بن سيدهم فقام بأمر المستعين بالله سعد هذا أتم القيام وخدمه، ولم يزل بألمرية كالمتصافي مع ولده حتى مات بها في آخر السنة هذه على ما بلغني.

شهر جمادى الأولى، انشغال صاحب قشتالة بثورة الفرنج(867هـ)

وفيه، أعني هذا الشهر ثار بعض ملوك الفرنج بصاحب قشتالة؛ فأشغلهم الله تعالى عن المسلمين وما كان قصده، وردّ الله تعالى كيده في نحره حتى بعث يلتمس الصلح بينه وبين المسلمين من أهل الأندلس، واتفق الحال على عقد الصلح بينه وبينهم في هذه السنة إلى مدة خمسة سنين، وحصل لبعض الناس بل لعامة أهل الأندلس بعض الطمأنينة، وأمنوا شرّ صاحب قشتالة.

استيلاء الفرنج على حصن لوشا (867هـ)

وفيه أخذ الفرنج في أثناء التكلم في الصلح قبل أن يعقد حصنا للمسلمين بالأندلس، وكنت أعرف اسمه وإنما أنسيته الآن، وأظنه حصن لوشا، وما حررت ذلك إلى الآن لبعد العهد بتلك البلاد.

شهر رجب، رعب الفرنج من السلطان العثماني

وفيها استهل شهر رجب (869هـ/1466م) بالأحد، وفيه في هذا اليوم أشيع بتلمسان أن ابن عثمان ملك الروم قد تهيأ وعزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب لإبادتهم، وزادت هذه الإشاعة، وكثرت في هذا الشهر بكثير من بلاد المغرب وبلاد الكفار حتى بلغني بعد

ذلك أن هذه الإشاعة دخل رعبها في قلوب الكثير من الفرنج النائين عن بلاد ابن عثمان، وحتى النائين ببعد كبير عن بلاد ابن عثمان.

شهر ربيع الآخر، السفر في البحر إلى الأندلس (869هـ):

وفيه، في يوم نصفه، سافرت في البحر الملح إلى البلاد الأندلس في مركب كبير للجنويين مع جماعة من تجار الأندلس وتلمسان ووهران.

دخول مالقة (869هـ):

وفيه، في يوم الجمعة ثالث عشرينه دخلنا لمدينة مالقة من بلاد الأندلس فنزلنا بها، واجتمعت بها بالشيخ العالم، الإمام، الهمام، سيدي أبو العباس أحمد السيد الشريف التلمساني، شيخ الأندلس وعالمها، وقاضي الجماعة بغرناطة، بل عالم المغرب في وقته، فأنس بنا، وسمعنا الكثير من فوائده. واجتمعت أيضا بالشيخ العالم، الفاضل، سيدي أبو عبد الله محمد بن الترعة قاضي مالقة وخطيبها.

قصبة مالقة:

وفيه- أعني هذا اليوم- الخميس تاسع عشرينه- صعدت بمالقة إلى قصبتها، وهي السلطنة وبها دار الإمارة، وكانت حينئذ خالية من السكان لأنها لم يكن بها عاملا حينئذ، فرأيتها قصبة هائلة، وبها الآثار العظيمة، وهي من تجديد السلطان الكبير أبو الحسن المريني ملك المغرب الذي ملك المغرب جميعه وملك الأندلس، الملقب بالمنصور.

وصف غرناطة (869هـ)

واجتزنا في الغد على الطريق لجهة غرناطة، فدخلناها في اليوم الثاني صبيحة النهار، وكان ذلك في أواخر هذا الشهر، ورأيت غرناطة، فإذا بها بلدة نزهة عظيمة من أعظم بلاد الأندلس، وهي قاعدة ملك الإسلام بالأندلس، وتحت السلطنة بها، غريبة الوضع حسنة الأبنية، ظريفة، أنيقة، بديعة الوضع، بها سائر أرباب الصنائع، وهي كدمشق الشام، وبها المياه الجارية والبساتين الأجنة والكروم، وهي مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء وأرباب الفنون والعمالات، وبها بقايا الناس والآثار العظيمة، وأمكنة النزهة، وهي في الجند تقدير دمشق، لكنها محشوة حشوا، وأهلها من خيار أهل البلاد وأشجع الناس، يقال إن بها ثمانين ألف رام بقوس الجوخ. ومن كانت العامة من أهل غرناطة معه من ملوك راج أمره، ومن شاءوا سلطنته أبقوه، ومن أبوه أخرجوه.

وبها الطريف والآداب الغريبة، وبالجملة فهي من أعظم بلاد المغرب وأنزهها، لقيت بها جماعة من العلماء والفضلاء، منهم شيخنا، سيدنا ومولانا قاضي الجماعة بها، الشيخ الإمام، العالم

العلامة، أبي عبد الله محمد ابن منظور، إنسان من كبار أهل العلم والفضل الغزير، له نورة وحسن سمت، وسكون زائد ووقار، ودين وخير وأدب وحشمة وورع، وعليه حضرت عنده غير ما مرة، وسمعت الكثير من فوائده، كثر الله في الإسلام من مثله، وقد بلغني أنه موجود إلى الآن في هذا الزمان، وهو باق على قضائه ومنصبه لدينه وعفته وحسن سيرته، وتحرزه وشكره في إنصافه وقضائه بالحق والعدل، حفظه الله تعالى وأبقاه، وبعين عنايته رعاه.

وفيه، في ثاني عشر منه، خرجت إلى جهة أجنة غرناطة وبساتينها، فرأيت العجب من كثرة ذلك وما بها من الفواكه والخيرات.

خرجنا للتنزه في كروم غرناطة أيضا من جهتها الأخرى غير جهة الأجنة فرأينا فيها أمرا مهولا من الأشجار من عنب وتين.

وفيه- في يوم الجمعة تاسع عشر منه- طلعت إلى صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن، وهو بحصنه دار الإمارة التي يقال لها غرناطة، فأنس إلي، وكان بعث يطلبني إليه ليسألني عن أخبار صاحب تلمسان وصاحب تونس، فذكرت له ما حضرني من ذلك، ثم أخذ يسألني عن الشام وأحواله، وعن مصر وأحوالها وأنا أجيبه عن كل ما يسأل من ذلك، وهو متعجب بما أجيبه، ثم خرج لي أمره بأن لا يأخذ مني شيء مما يلزم التجار من المغارم، وأكرمني إلى الغاية.

وبالجملة، فإن غرناطة هذه وحمراءها من أجل مدن الأقاليم وأظرفها، لولا قرب الكفار من تلك الديار وأخذهم غالب تلك الأقطار الأندلسية والكثير من مدن الإسلام التي كانت مشهورة، لاسيما في أيام بني أمية بها، مثل بلنسية وقرطبة وطليطلة وشذونة وجيان، والحصون المنيعة كشاطبة وغير ذلك من بلاد كثيرة كانت للإسلام صارت للفرنج الآن، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

شهر رجب، ركوب البحر إلى وهران:

وفيها استهل رجب بالاثنين، ففيه، في هذا اليوم، ركبنا البحر عائدين إلى وهران فدخلتها في رابع رجب هذا، وعزمت على السفر في البحر في المركب التي ركبنا بها والتوجه فيها إلى جهة تونس...".

لقد تزامنت رحلة عبد الباسط الظاهري إلى أقطار الغرب الإسلامي مع الانتصارات التي حققها السلطان محمد الفاتح بفتح بيزنطة واتخاذها عاصمة للإمبراطورية العثمانية، ثم الانطلاق منها للقيام بالفتوحات في أوروبا الشرقية في الوقت التي تضاعفت هجومات الأسبان والبرتغال لاحتلال ما تبقى للعرب والمسلمين بالأندلس، وللتمركز في قواعد هامة بشمالي إفريقيا...

فهل كان عبد الباسط الظاهري مكلفا بجمع معلومات عن أقطار الغرب الإسلامي المهددة بالغزو المسيحي الإسباني والبرتغالي؟

"ورد الخبر إلى تلمسان بأن صاحب غرناطة قد وقعت الوحشة بينه وبين ولده... وفيه أعني هذا الشهر أخذ الفرنج البرطقال البلد العظيم المسمى بجبل الفتح، وذلك في هذه الفتنة الكائنة بين الأب وابنه... وفيه ورد الخبر إلى تلمسان من الأندلس بأن ألفنس صاحب قشتالة وإشبيلية وقرطبة قد عزم على الزحف على الأندلس لغزوها وأخذها للخلاف بين الأب وابنه..." [11].

وعندما زار عبد الباسط الظاهري صاحب غرناطة السلطان أبي الحسن هل بشره بنجدة السلطان العثماني لأقطار الغرب الإسلامي؟ سألني عن الشام وأحواله وعن مصر وأحوالها وأنا أجيبه عن كل ما يسأل من ذلك، وهو متعجب مما أجيبه...".

و"استهل شهر رجب (869هـ/1466م) بالأحد، وفي هذا اليوم أشيع بتلمسان أن ابن عثمان ملك الروم قد تهيأ و عزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب وبلاد الكفر حتى بلغني بعد ذلك أن هذه الإشاعة دخل رعبها في قلوب الكثير من الفرنج النائيين عن بلاد ابن عثمان، حتى النائيين ببعد كبير عن بلاد ابن عثمان..." [12].

المراجع:

-(1) تلمسان: سلسلة الفن والثقافة، وزارة الأنباء والثقافة الجزائرية، مدريد، دجنبر 1971،ص.12.
- (2) المصدر نفسه، ص. 18.
- (3) المصدر نفسه، ص. 18.
- (4) المصدر نفسه، ص. 18.
- (5) المصدر نفسه، ص. 18.
- (6) المصدر نفسه، ص. 40.
- (7) المصدر نفسه، ص. 40.
- (8) المصدر نفسه، ص. 52.
- (9) مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال مخطوطه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، مجلة" التاريخ العربي"، العدد السابع عشر، شتاء 2001، صص.111-146.
-(10) المصدر نفسه.
- (11) المصدر نفسه.
- (12) المصدر نفسه.